تجسيد المعنى بالنغمة والصورة كلغة لطفل ما قبل المدرسة

تجسيد المعنى بالنغمة والصورة

كلغة لطفل ما قبل المدرسة

أ. السيد القماحى

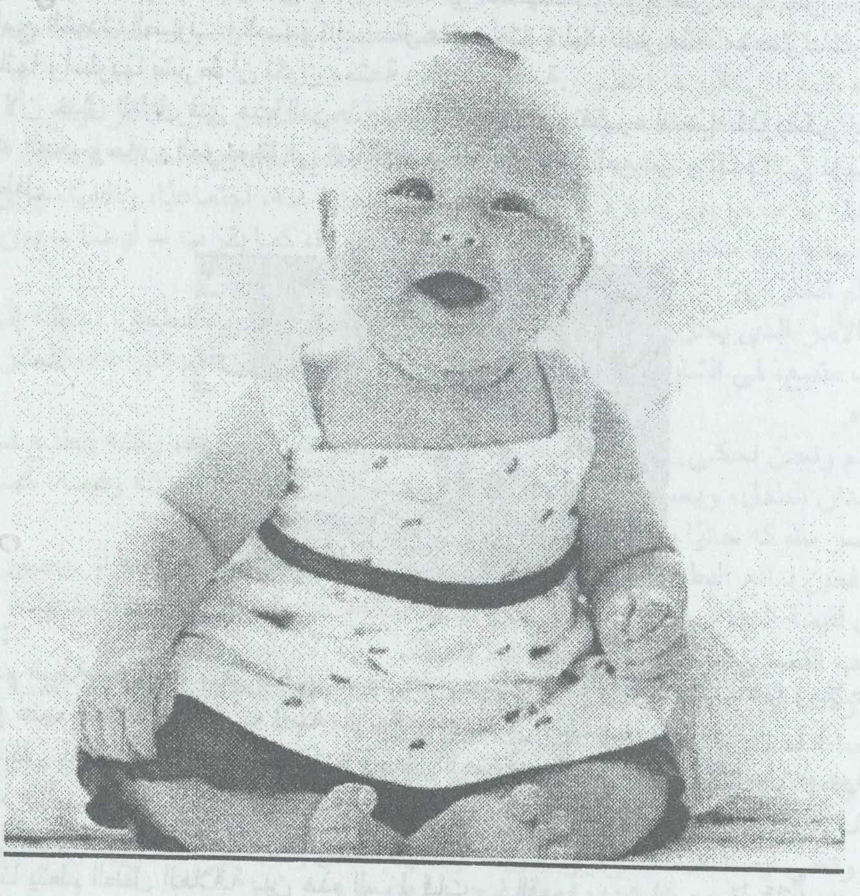

أولاً : من هو الطفل ؟

يقول علماء التربية :

- الطفل هو ما كان منذ الولادة، حتى سن البلوغ.

ويقولون أيضًا :

- والطفل هو ما كان منذ سنتين حتى ست سنوات، وتسمى هذه المرحلة : الطفولة المبكرة.

ومن ست سنوات حتى اثنتى عشرة سنة، وتسمى : الطفولة المتأخرة.
ومن اثنتى عشرة سنة، حتى خمس عشرة، وتسمى : بداية المراهقة.
ومن خمس عشرة حتى ثمانى عشرة، تسمى : مرحلة وسط المراهقة.
ومن ثمانى عشرة، حتى اثنتين وعشرين، وتسمى : مرحلة المراهقة المتأخرة.

وما يهمنا الآن، بعد مرحلة التعريف لمراحل الطفل، هو طفل ما قبل المدرسة، أو مرحلة ما قبل (الشخبطة بالقلم)، وفى هذه المرحلة يتجسد المعنى المراد نقله إلى الطفل بالنغمة والصورة.. أو هكذا ما يجب أن يكون.

وفى هذه المرحلة يتمكن الطفل، طفل ما قبل المدرسة، من سماع القصص والعبارات الصوتية المنغومة.. كما تشده الصور الملونة الجذابة، ويحاول أن يقلد من حوله فى حركاتهم، وفى أعمالهم، وفى أصواتهم.

وفى هذه المرحلة.. يمكن تقديم الأغانى البسيطة، ونوع من القصص المسجل، والبرامج المعدة بالصوت والصورة لموضوعات مختارة لهذه المرحلة، موضوعات مناسبة بمفرداتها وأسلوبها بشرط أن تكون ممتعة ومفيدة وجذابة.

ولأن خيال الطفل فى هذه المرحلة يكون محدودًا، وتفكيره أيضًا؛ لذا يمكن استخدام الأشياء المحسوسة، والموجودة فى البيئة المحيطة، لتجسيد المعانى والقيم التى نريد نقلها إلى الطفل.

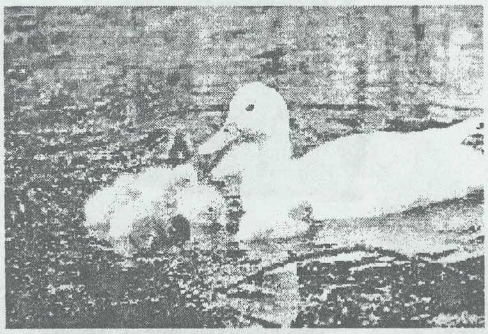

مثلاً :

نقدم البطة الكبيرة ، وهى تُعنى بصغارها، بحمايتها لهم، وإطعامها إياهم، وملاعبتهم، والدفاع عنهم ضد مَن تسول له نفسه بالاعتداء عليهم من القطط، وغيرها.

عندئذ.. يتعلم الطفل معنى العطف، ومعنى الحماية، ومعنى الدفاع عن حق الوجود، مع لفت نظره إلى الله هو الذى خلق البطة وغيرها من سائر المخلوقات، كما أنه هو الذى خلق الطعام الذى يأكلونه، والماء الذى يشربونه.

وهنا يتعلم الطفل العلاقة بين هذه المخلوقات وخالقهم، وبين الله ومخلوقاته.. بما فى ذلك المخلوقات من البشر.

هذه المعانى.. تنقل إلى الطفل مجسدة فى الكتب المصورة، أو الناطقة مع الصور.. وإلى جانب الحكايات القصيرة الشارحة بالأسلوب البسيط الشفوى من الأم.. أو المربى.

وقد يستمع الطفل إلى القصة من أمه، ويتابعها مشاهدة فى الكتاب المصور، أو يشاهد القصة كلها مصورة بدون كلمات عنها، شفاهية أو غير شفاهية، ويترك لخياله متابعة أحداثها من تتابع الصور وحدها.

وكما سبق القول لا يكفى أن تكون الحكايات المسموعة بالسرد فقط، بل تحتاج إلى نوع من التلوين الصوتى الذى يساعد على تصور المواقف وتجسيدها، وعلى تمثل الأحداث، ونقل المشاعر والانفعالات، ورسم الأجواء المحيطة بالحوادث.

ومن الأفضل توفير أصوات مساعدة معبرة ومجسدة عن طريق تسجيل أصوات حقيقية لمظاهر الطبيعة مثل : أصوات الرياح، وأصوات الحيوانات والطيور، أو أصوات حركات معينة لشخصيات قصة أو حدوتة، أو عن طريق تقليد هذه الأصوات من قبل الأم أو المربية، أو الجد أو الجدة.

وإذا صاحبت هذه الأصوات صور تمثيلية معبرة أو صور واقعية بالفيديو كان تأثيرها أكبر.

الآن جهاز الكمبيوتر قد حل محل (الفيديو).. حيث يمكننا وضع (الديسك) أو (الأسطوانة) فى هذا الجهاز، لنشاهد ما نريد مشاهدته أو سماعه.

وكلما كانت اللغة، لغة الحدوتة أو القصة، فى معظم الأحوال منغومة، مسجوعة، مغناة، كلما كان تأثيرها أعظم.

وكلما كان السرد قصصيًا، بأحداث وشخصيات ومفاجآت.. كان التأثير أوقع.

ذلك لأن النص، خصوصًا إذا كان لطفل ما قبل المدرسة، وباستخدامه لوسائل التجسيد هذه فإنه يقرب ما بين السارد أو الحاكى، وبين المحكى عنه، اجتماعيًا، ونفسيًا، وروحيًا. كما يقرب ما بين عقل الطفل والمفاهيم المجردة، كما يقرب – أيضًا – بين الطفل والعالم الخارجي.

الأمر الذى يحرره – أى يحرر الطفل – من حدود عالمه الضيق، وينقله إلى عالم رحب متسع، فى الشارع والمدينة، والغابة، والصحراء، والبحر، ثم إلى عالم البشر بخيره وشره.

ثم ونحن نحكى.. فنحن نجسد ما نحكيه بالصوت والصورة، وكله ينطبع فى عقل ووجدان الطفل، ويسجله خياله، وينضم إلى عناصر تفكيره وخبرته وقيمه، كما يشكل عناصر سلوكه حاليًا ومستقبلاً.

فحين تدافع البطة أو الدجاجة عن صغارها مثلاً فى قصة مسموعة أو مصورة، فهذا مثال لقيمة الدفاع عن النفس، ومثال لقيمة الدفاع عن الصغير وعن الضعيف، ومثال لواجب التصدى للمعتدى، ولو ملك قوة متفوقة:

وكما فى هذا المثال تكمن قيمة الدفاع عن الحياة، تكمن قيمة الرحمة والحنو والمساعدة، وقد تشربها الطفل بطريقة غير مباشرة.

والصورة المقدمة للطفل تعنى نقلها من الواقع الحى إلى الورق فى كتاب أو مجلة، أو نقلها إلى الشاشة على جهاز كمبيوتر.

وتعني أيضًا هدف التركيز عليها، ليتأملها الطفل وكأنه يراها لأول مرة. فهو مثلاً.. يرى الدجاجة، أو يرى الكلب أو القطة فى الواقع الحى.

ولكنه يراها كائنًا متحركًا فى زحمة الكائنات الأخرى مع البشر والشجر، والبيوت، إلى آخره، فلا يتم التركيز عليها.

لكن عندما يراها مصورة أو مرسومة مستقلة فى كتاب أو مجلة أو على شاشة، فإن نظره ووجدانه ينسحب للتركيز عليها، وكأنما يتساءل : (لماذا هذه هنا؟).. ومن ثم يتهيأ لفهمها واستيعاب تفاصيلها : فى جسمها، وحركاتها، وأصواتها، وجميع أحوالها، حبذا فى إطار حدوتة جاذبة.

وإذن.. حين يرى الطفل الكائن المصور أو المرسوم وسط كائنات فى الطبيعة الحية، فهى الرؤية العشوائية.

وحين يراه فى كتاب أو مجلة، أو على شاشة، فهى الرؤية المنظمة المركزة المستوعبة. وهذه الأخيرة هى ما يأتي منها العلم والمعرفة فى هذه المرحلة، وفى المراحل التالية أيضًا.

النغمة والمعنى في لغة الطفل

كما يهتدى الطفل إلى أمه عن طريق صوتها يهتدى كذلك إلى معنى الشىء، وإلى صورته عن طريق النغمة، فنغمة الصوت هى كصوت جديد، أو هي صوت منغوم بنغمة خاصة تميزه وتميز المعنى الذى قصد به.

فعندما نقول أمام الطفل : (نَو .. نَو) مثلاً مقلدين صوت القطة، تقفز إلى ذاكرته صورة القطة دون شرط لوجود القطة نفسها أمامه فى الواقع، كذلك عندما نقول أمامه : (هَو .. هَو) تقفز إلى ذهنه صورة الكلب.

وبالمثل .. عندما تريد إيصال معنى من المعانى للطفل، نغير من نغمات صوتنا، مما يربط هذه النغمة بهذا المعنى المقصود برباط قوى.

والهدف هو التجسيد، والجذب ولفت الانتباه، وتحريك العقل والشعور لدى الطفل لتوصيل معنى ما، فنغمة صوت الزئير للأسد مثلاً تستدعى إلى ذاكرة الطفل صورة الأسد وأحواله، بل والمكان الذى شاهده فيه الطفل لأول مرة على الشاشة، أو فى حديقة الحيوان.

هذه النغمات الصوتية إذن بمثابة إشارات شأنها شأن اللغة أو الكلمات الدالة على أشياء محددة.

وهنا يمكن للكلمة الواحدة أن تشير إلى أكثر من معنى.. فهى حين تكون بنغمة معينة مقصودة تشير إلى معنى مختلف نريده. فمثلاً حين نقول (أسد) بنغمة تضخيم فهذه تشير إلى أسد قوى ضخم، وحين نقولها برقة فنحن نعنى بها أسدًا طيبًا عاديًا، بما يوحى بالمسالمة..، وهكذا.

الكلام المنغوم شعرًا في النوم والتعليم

وكما كانت أداة الكلام المنغوم وسيلة فاعلة لنوم الطفل الصغير مع الهدهدة والمناغاة، كذلك كانت النغمة الشعرية وسيلة لأهداف شتى تربوية وترفيهية، وتعليمية، إلخ.

فمن الناحية التربوية نرى الشاعر محمد الهراوى يكتب للطفل فى تحية الأم فى العام الجديد.

يقول :

أمُ يا نور حياتـى .. طبت بالعام الجديد
فخذى منى وهاتى .. قبلة العيد السعيد

وأيضًا تحية للأب .

يقول :

تحية يا والـدى .. فى عامك الجديد
أهدى إليك زهرة .. فيها تهانى العيد
تعرب عن محبتى .. من قلبى الودود

وكانت أداة الكلام المنغوم شعرًا من أكثر الأدوات الجمالية، استخدامًا فى مجال تعليم الأطفال، خاصة لسن ما قبل المدرسة.

كما فى شعر شاعرنا محمد الهراوى، وها هو ذا مثال آخر فى مجال تعليم الحروف الهجائية.

يقول عن حرف الألف :

فألف فى أرنب
قد اشتراها لى أبى

وفى حرف الباء :

والباءُ مثل بقرة
تأكل تحت الشجرة

وفى حرف التاء :

والتاء مثل تاج
من ذهب وهاج
وهكذا...

ويقدم الشاعر محمد الهراوى أنشودة على لسان طفلة صغيرة تهدهد دميتها:

يا دميتي يا خيرة يا طلعة منورة
لك عيون حلوة براقة مـدورة
وفيك شعر أصفر سبيكة مضفرة

وكما نرى توظيف الكلام الشعرى والكلام العادى المنغوم فى الأهداف التعليمية والتربوية نراه أيضًا فى مجالات الترفيه واللعب.

مثال :

واحد اتنين خرجى مرجى
أنت حكيم ولا تمــرجى

ومثال :

يا هوا يا سبيسى
نشف لى قميصى
لأمى تضــربنى
وبابا يدبحنى
والمعزة تحوش عنى

ومثال :

حطة يا بطة
يا دقن القطة
سعيدة جاية
م الغربية
وادى الزير

وادى غطاه
وادى النبى
اللى احنا حداه

وهكذا تتحد أدوات النغم فى الكلام العادى والشعرى مع الصور الجميلة الجذابة المرسومة فى كتاب أو مجلة ليجسد هذا كله معنى أو صورة أو قيمة، أو متعة للطفل الصغير.

وهذا يعنى... أننا كلما اقتربنا من الطفل بالفطرة، وبالفن لتقديم رسالة ما، نجحنا فى توصيلها له كما ينبغى باللغة التى تصل إلى شعوره قبل عقله.

المراجع

- أدب الأطفال تربية ومسئولية (محمد حسن بريغش)
- محمد الهراوى شاعر الأطفال (أحمد سويلم)
- الألعاب الشعبية فى مصر (محمد عمران)